النظرية الواقعية في العلاقات الدولية

أولا: تعريف النظرية الواقعية:

تعتبر النظرية الواقعية من بين أهم و أشهر النظريات في العلاقات الدولية برزت أفكارها و أفتراضاتها من خلال العديد من الأعمال التي حاولت انتقاد الفكر المثالي الذي ينطلق مما يجب أن تكون عليه العلاقات الدولية ليطرح الواقعيون نهجا أكثر واقعية و علمية داعين بذلك إلى ضرورة الانطلاق من الواقع كما هو على انه واقع صراعي بين الدول من أجل القوة. ظهرت أفكار الواقعيين في فترة نهاية الحرب العالمية الثانية و مازالت تثبت قوتها إلى يومنا هذا. و من بين أهم روادها نذكر: ادوارد كار، هينري كيسنجر، روبرت جلبن، كينيث والتز...

ثانيا: نشأة و تطور الفكر الواقعي:

هيمن المنظور الواقعي على تحليل العلاقات الدولية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية من خلال تركيزه على دراسة أسباب و عوامل الحرب و السلام بين الدول، و قد مثلت الواقعية طرحا جديدا للتحليل مقابل الطرح المثالي الذي أثبتت الحرب العالمية الثانية عدم فعاليته و مصداقيته.

و رغم الارتباط البحثي للواقعية بفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية إلا أن جذورها تمتد لفترات سابقة، فكثيرا ما وصفت أفكار توماس هوبز، ميكيافيلي و ثيوسيديس بالواقعية

و قد تطور الفكر الواقعي على مرحلتين: **المرحلة الأولى** و تسمى بالواقعية الكلاسيكية أو التقليدية و هي مجمل الأفكار و الطروحات التي ظهرت في الفترة بين الحربين العالميتين بعد طرح أبحاث كل **ادوارد كار** و **هانس مورغانتو** على وجه التحديد، و تتمحور أفكار هذه المرحلة حول مجموعة من المسلمات النظرية أهمها هو كون الصراع هو الصفة الغالبة و المسيطرة على التفاعلات الدولية، و أن الإنسان أناني بالطبع.

هذا و شهدت فترة ما بعد الحرب الباردة إعادة إحياء الفكر الواقعي مع أفكار كينيث وولتز في إطار ما يسمى بالواقعية الجديدة أو الواقعية البنيوية و لعل أهم ما يميزها هو التركيز على بنية النظام الدولي كمصدر للصراع و الفوضى في السياسة الدولية.

ثالثا: الواقعية الكلاسيكية:

هنالك مجموعة من العوامل التي ساهمت في ظهور الفكر الواقعي وتتمثل في :

(1) نشوب الحرب العالمية الثانية.

(2) وجود حالة من الاختلاف والتضارب في المصالح.

(3) دخول الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في سباق التسلح.

خلال هذه الفترة ظهرت كتابات الباحث و الأستاذ الجامعي هانس مورغانتو في مؤلفه "**السياسة بين الأمم**" الذي مثل بداية التحليل الواقعي العلمي للعلاقات الدولية.

الافتراضات الأساسية للواقعية الكلاسيكية: عموما تنطلق الواقعية التقليدية من مجموعة من الافتراضات التي تمثل مسلمات أساسية مشتركة بين المنظرين هي :

- ✓ يؤكد الواقعيون على غرار باقي المنظرين أن الدولة هي الفاعل الأساسي في العلاقات الدولية، و هي وحدة التحليل الأساسية.
- ✓ الطبيعة الإنسانية ثابتة و يصعب تغييرها، فالإنسان حسب الواقعيين ينزع للشر و الخطيئة و امتلاك القوة و لا يمكن حسبهم تغيير هذه الحقيقة عن طريق الأخلاق أو القانون او المؤسسات الدولية كما يعتقد المثاليون.
- ✓ و بناءا عليه فالسلام في العلاقات الدولية صعب و مستحيل التحقيق حسب الواقعيين فهم يرون بمحدودية دول القانون الدولي و المنظمات الدولية و من الضروري البحث عن طرق أخرى لإحلال السلام اتفق الواقعيون حول أهمية ميزان القوى في هذا الإطار كضامن لتحقيق الاستقرار من ثم السلام في السياسة الدولية. و في حالة غياب توازن القوى فإن القوي قادر على انتهاك القانون الدولي لأنه قوى بحكم قانون الطبيعة الذي يقول أن البقاء للأقوى وأن القانون يشرع لما هو باق.
- ✓ يؤثر الموقع الجغرافي للدولة على وضعها و سلوكها في السياسة الخارجية، فالموقع الجغرافي و المعطيات المادية للدولة قد تعطيها مركزا هاما أو مهمشا في السياسة الدولية.

- ✓ و مقابل كل هذا يرى الواقعيون بلا أهمية القواعد الأخلاقية في العلاقات الدولية حيث أن المحدد الأساسي لسياسة الدولة الخارجية هو المصلحة القومية حتى وان تعارضت مع المبادئ الأخلاقية.

الواقعية الكلاسيكية عند هانس مورغانتو:

مثل مؤلف "**السياسة بين الأمم**" لهانس مورغانتو أهم كتاب حدد معالم الفكر الواقعي في تحليل العلاقات الدولية، و تتحدد الإضافة العلمية الكبيرة التي قدمها مورغانتو في تحديده لمبادئ الواقعية السياسية و هي:

1. السياسة مثل المجتمع تخضع لقوانين موضوعية نابعة من الطبيعة البشرية و تهدف الواقعية إلى وضع نظرية عقلانية تحترم هذه القوانين الموضوعية.
2. مفهوم المصلحة interest المرتبط بمفهوم القوة power يعد مرتكزا أساسيا للفكر الواقعي يستخدم من اجل تفسير و فهم السياسة الدولية interest defined as power، حيث أن هذا المفهوم مرتبط بعالم السياسة في حد ذاته و يميزه عن باقي الميادين مثل الاقتصاد، الدين...
3. مفهوم المصلحة الذي تعتمده الواقعية هو مفهوم مشترك عند كل الدول و هو جوهر السياسة و لا يتأثر باختلاف الزمان و المكان، حيث تختلف اهتمامات و أهداف السياسة الخارجية للدولة المحددة لمصلحتها حسب خلفيتها السياسية و الثقافية.
4. تعترف الواقعية بأهمية القيم الأخلاقية في توجيه العمل السياسي و سلوك الدولة الخارجي، مثل أهميته في توجيه سلوك الفرد في المجتمع، إلا أن تطبيقها في السياسة الدولية يجب أن يكون مرتبطا بظروف الدولة حيث يجب عليها اختيار القيم التي توافق و تساعد في تحقيق مصلحة الدولة. و يقول **مورغانتو** هنا انه من حق الفرد أن يضحي بنفسه من اجل قيمه الأخلاقية و لكن ليس من حق الدولة أن تضحي بمصالح الشعب (المصلحة الوطنية) من اجلها.
5. يرفض الواقعيون الربط بين التطلعات الأخلاقية لدولة من الدول مع القوانين الأخلاقية العالمية، حيث تميل معظم الدول إلى تغطية تطلعاتها الخاصة تحت غطاء الأهداف الأخلاقية العالمية.
6. الاختلاف بين الواقعية السياسية و المدارس الفكرية الأخرى مثبت و عميق حيث أن الواقعية من خلال مبدأ المصلحة المرتبط بالقوة أثبتت استقلالية المجال السياسي من الناحية التحليلية عن باقي الميادين. (جوهر السياسة)

رابعا: الواقعية الجديدة (الواقعية البنيوية):

جاء طرح الواقعية الجديدة أو الواقعية البنيوية كرد فعل على الانتقادات التي وجهت للواقعية الكلاسيكية في السبعينيات و التي تمحورت حول تركيز الواقعية على سلوك الدولة و أغفلت سلوك المؤسسات الدولية، كما انتقدت في التركز على الطبيعة البشرية لتفسير العلاقات الدولية و إهمال العوامل الأخرى... و عليه حاول كينيث والتز K.Waltz تكييف أفكار الواقعية التقليدية مع التطورات في السياسة الدولية من خلال دراساته أين أكد من خلالهما على أن القوة تعتبر متغيرا رئيسيا في السياسة الدولية و انه لا يمكن فهم و تفسير السياسة الدولية إلا بكونها في حالة صراع و تنافس دائم. و أن "**الحروب تندلع لأنه ما من شيء يمنعها**"

سميت الواقعية الجديدة بالواقعية البنيوية ذلك أن والتز ينطلق في تحليله البنيوي من مفهومي **النظام و البنية** في تفسير السياسة الدولية، حيث تركز الواقعية الجديدة على بنية النظام الدولي كموجه للعلاقات السياسية بين الدول. و حسب Waltz ان أي نظام يتشكل من بنية و وحدات متفاعلة بعضها ببعض، مصطلح البنية structure يدل على الطريقة التي تنتظم بها مختلف أجزاء النظام.

افتراضات التحليل البنيوي لكينيث والتز: يمكن تحديد أهم افتراضات الواقعية الجديدة كما طرحها Waltz في:

1. **الدولة هي فاعل أساسي، وحدوي و عقلاني:** فالدولة هي الفاعل الأساسي في السياسة الدولية بسبب امتلاكها لوسائل العنف المنظم، وقف ما أكدت عليه الواقعية الكلاسيكية لكن ظهور فواعل أخرى في الساحة الدولية على غرار المنظمات الدولية، الشركات المتعددة الجنسيات... أصبح من الصعب انطولوجيا تجاهل مثل هذه الفواعل، و عليه حاول الواقعيون الجدد الاعتراف بهذه الفواعل واعتبارها جزء في التحليل دون أن تكون ذات فعالية أو استقلالية عن سياسات الدول و أهدافها.

رغم اعتراف "**والتز**" **(k.Waltz)** بالدور الجديد الذي تلعبه الفواعل غير الدولية في العلاقات الدولية أين يعترف والتز ان"**الدول ليسوا ولن يكونوا أبدا الفواعل الدولية الوحيدة**"، إلا أنه يعود فيقول أن "**الدول هم**

الوحدات المشكلة لتفاعلات بنية الأنظمة السياسية الدولية" وان أي دور للفواعل الأخرى مرهون بالدول "**الدول تضع القوانين التي تسير باقي الفواعل**".

2. **الطبيعة الفوضوية للنظام الدولي هي التي تحدد سلوك الفواعل** : فقد أكدت الواقعية الجديدة على افتراض الواقعيين التقليديين حول فوضوية النظام الدولي، لكن والتز و البنيويين عموما كانوا أكثر تحديدا و اهتماما بدور النظام الدولي كموجه لسلوكات الدول. هذه الطبيعة او البنية الفوضوية للنظام الدولي تعود حسب والتز لغياب السلطة الفوقية المنظمة و في ظل الفوضى يكون الميل للعنف violance و الحرب هو الميزة الغالبة على التفاعلات بين الدول ذلك أن الدولة بطبيعتها هي دولة حرب "**the state of nature is a state of war**". و أن الحرب محتملة الحدوث في أي وقت بين الأفراد المجتمعات أو الدول خصوصا في ظل غياب الطرف المنظم.
3. **الهدف الأساسي للدولة هو الحفاظ على الأمن و البقاء:** في ظل المعضلة الأمنية الدولية و في إطار البنية الفوضوية للنظام الدولي فإن الوحدات الدولية(الدول) تجد نفسها في ظل وضع الاعتماد على الذات self-help و في حاجة إلى الاعتماد على نفسها وعلى السياسات التي تضمن بقاءها وتحسن من وضعها الأمني بشكل انفرادي خصوصا في ظل حالة الشك و عدم الثقة السائدة بين الدول. حيث يقول **وولتز** هنا أنه" **في ظل الفوضى يكون وضع المساعدة الذاتية هو مبدأ عمل ضروري للدولة**".

و المخطط التالي يلخص أهم افتراضات التحليل البنيوي لكينيث والتز وفقا للافتراضات و المبادئ سابقة الذكر:

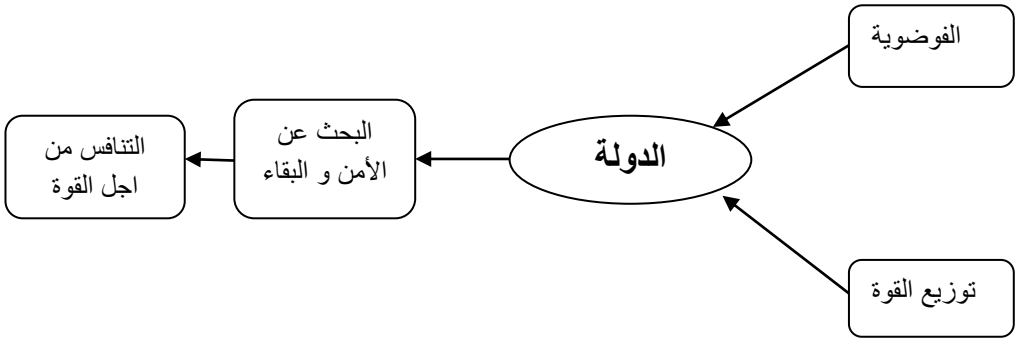

الشكل رقم 1: تأثير لنظام الدولي على سلوك الدولة حسب والتز

اتجاهات الواقعية الجديدة:

رغم اتفاق الواقعيين الجدد حول المبادئ العامة للتحليل الواقعي على غرار القوة، الصراع، توزان القوى، دور النتظام الدولي كموجه... إلا أن الواقعية البنيوية قد شهدت بدورها انقساما بين اتجاهين مختلفين في التحليل يقول جون مرشايمر هنا أن أساس التفرقة بينهما حول الإجابة على السؤال التالي: ما **مقدار القوة الكافي الذي تحتاجه الدولة** "**how much power is enough?**":

❖ الاتجاه الواقعي الدفاعي:DEFENSIVE REALISM

من ابرز رواد هذا الاتجاه **كينيث والتز**، **روبرت جيرفس** و **ستيفن والت** و يفترض هذا الاتجاه أن بيئة النظام الدولي الفوضوية تدفع الدولة إلى تبني سياسات تهدف لزيادة و تعظيم قوتها من اجل ضمان أمنها و بقائها و بالتالي فهي تتصرف بشكل دفاعي من اجل المحافظة على وضعها الآمن و بقائها في السياسة الدولية، لان تبني سياسة هجومية سيدفع الدول الكبرى لمحاربتها و تهديد بقائها. إلى جانب ذلك يرى النيو– واقعيون الدفاعيون أن الدولة لا تسعى إلى تعظيم مكاسب قوته النسبية، بل تسعى بدلا من ذلك إلى تبني استراتيجيات للحد من تعاظم مكاسب القوة النسبية لأعدائها من الدول.

❖ الاتجاه الواقعي الهجومي:OFFENSIVE REALISM

و يعد جون ميرشايمر رائد هذا الاتجاه حيث يختلف مع طرح الواقعيين الدفاعيين في مقدار القوة الذي تسعى إليه الدولة، حيث يرى ميرشايمر من خلال مؤلفه مأساة القوى العظمى " **the tragedy**

of great power politics" سنة 2001 و يؤكد في أن الدول الكبرى تسعى للحصول على القدر الأعظم من المكاسب في قوتها مقارنة مع الدول الأخرى، من اجل تحقيق السيطرة إقليميا أو عالميا و بالتالي فسياسة المحافظة على الوضع القائم تكون غير ملائمة لهذه الدول إلا في حالة الدول المسيطرة التي ستسعى حتما للمحافظة على وضعية السيطرة. و يقول في هذا السياق:" فالقوة **تضمن الأمان و القوة الأعظم تمثل الضمان الأعظم للأمان**"

وفي موضوع الهيمنة الذي يعتبر مفهوما مركزيا في تحليلات ميرشايمر فيفرق بين السيطرة او الهيمنة العالمية global hegemony و السيطرة الإقليمية regional hegemony ، حيث يرى أن السيطرة العالمية صعبة التحقيق حيث لم يحدث تاريخيا أن سيطرت دولة معينة على العالم كله و لفترات طويلة، في حين قد تستطيع الدولة تحقيق السيطرة الإقليمية و من ثم تطمح لتوسيع سيطرتها تدريجيا.

<u>الواقعية الكلاسيكية الجديدة</u>: ظهر هذا الاتجاه من الواقعيين خلال فترة تسعينات القرن العشرين و يعتبر مزيجا بين الفكر الواقعي الكلاسيكي و الجديد في نفس الوقت، يتركز حول تحليل العوامل المؤثرة في السلوك الخارجي للدولة حيث يمزج الواقعيون الكلاسيكيون الجدد أمثال: جيفري تاليفيرو بين العوامل المتعلقة بالبيئة الداخلية unit level و الخارجية system level في توجيه السياسة الخارجية للدولة هذا بعد أن كان الخلاف بين الواقعيين الكلاسيكيين و الجدد حول أهمية كل من البيئة الداخلية أو النظام الدولي في توجيه السياسة الخارجية للدولة.